الصباح الإسلامية
09
إشراف : ياسر السيد
العدد 2521 - السنة التاسعة
الأربعاء 15 شوال 1437 - الموافق 20 يوليو 2016
Wednesday 20 July 2016 - No.2521 - 9th Year

من أعظم الأصول المهمة في الإسلام

الإخلاص لله في كل الطاعات من أهم أعمال القلوب المندرجة في تعريف الإيمان

أعظم الأصول المهمة في دين الإسلام هو تحقيق الإخلاص لله تعالى في كل العبادات، والابتعاد والحذر عن كل ما يضاد الإخلاص وينافيه، كالرياء والسمعة والعجب ونحو ذلك. ورحم الله احد العلماء إذ يقول: «وددت أنه لو كان من الفقهاء من ليس له شغل إلا أن يعلم الناس مقاصدهم في أعمالهم، ويقعد للتدريس في أعمال النيات ليس إلا، فانه ما أتى على كثير من الناس إلا من تضييع ذلك». أ.هـ

أهمية أعمال القلوب:

إنّ تعريف الإيمان عند أهل السنة هو:

(إقرار باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان، يزيد بالطاعة، وينقص بالعصيان).

ويُعدّ الإخلاص أهم أعمال القلوب المندرجة في تعريف الإيمان، وأعظمها قدراً وشاناً، بل إن أعمال القلوب عموماً أكد وأهم من أعمال الجوارح، ويكفي أنّ العمل القلبي هو الفرق بين الإيمان والكفر، فالساجد لله والساجد للصنم كلاهما قام بالعمل نفسه، لكن القصد يختلف، وبناء عليه أمن هذا وكفر هذا.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله في بيان أهمية أعمال القلوب: «وهي من أصول الإيمان وقواعد الدين، مثل محبته لله ورسوله، والتوكل على الله، وإخلاص الدين لله، والشكر له والصبر على حكمه، والخوف منه، والرجاء له، وما يتبع ذلك». أ.هـ

فالقول: «هذه الأعمال جميعها واجبة على جميع الخلق باتفاق أئمة الدين، والناس فيها على ثلاث درجات: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات.

فالظالم لنفسه: العاصي بترك مامور او فعل محظور.

والمقتصد: المؤدي للواجبات، والتارك للمحرمات.

والسابق بالخيرات: المتقرّب بما يقدر عليه من فعل واجب ومستحب، والتارك للمحرم والمكروه.

وإن كان كل من المقتصد والسابق قد يكون له ذنوب تُمحى عنه؛ إما بتوبة والله يحب التوابين ويحب المتطهرين، وإما بحسنات ماحيه، وإما بمصائب مكفرة، وإما بغير ذلك». أ.هـ (1).

ويقول ابن القيم رحمه الله: «أعمال القلوب هي الأصل، وأعمال الجوارح تبع ومكملة، وإنّ النيّة بمنزلة الروح، والعمل بمنزلة الجسد للأعضاء، الذي إذا فارق الروح ماتت. فمعرفة أحكام القلوب أهم من معرفة أحكام الجوارح». أ.هـ (2) وقال شيخ الإسلام: «والأعمال الظاهرة لا تكون صالحة مقبولة إلا بتوسط عمل القلب، فإن القلب ملك، والأعضاء جنوده، فإذا خبثت جنوده، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: إنّ في الجسد مضغة... الحديث». أ.هـ (3)

تعريف الإخلاص:

قال العز بن عبد السلام: «الإخلاص أن يفعل المكلف الطاعة خالصة لله وحده، لا يريد بها تعظيما من الناس ولا توقيرا، ولا جلب نفع دينيّ، ولا دفع ضرر دنيوي». أ.هـ(4).

قال سهل بن عبد الله: «الإخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته لله تعالى خاصة». أ.هـ

وقيل: «هو تفريغ القلب لله» أي: صرف الانشغال عمّا سواه، وهذا كمال الإخلاص لله تعالى (5).

وقيل: «الإخلاص تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين».

ويقول الهروي: «الإخلاص تصفية العمل من كل شوب».

ويقول بعضهم: «المخلص هو: الذي لا يبالي لو خرج كل قدر له في قلوب الناس من أجل صلاح قلبه مع الله عزّ وجلّ، ولا يحب أن يطلع الناس على مثاقيل الذر من عمله».

سئل التستري: «أي شيء أشد على النفس؟! قال: «الإخلاص: لأنه ليس لها فيه نصيب».

ويقول سفيان الثوري: «ما عالجت شيئاً أشد عليّ من نيتي؛ إنها تتقلبُ عليّ». (6) ومدار الإخلاص في كتاب اللغة على الصفاء والتميز عن الأشواب التي تخالط الشيء يقال: هذا الشيء خالص لك: أي لا يشاركك فيه غيرك والخالص من الألوان عندهم ما صفا ونصع. ويقولون خالصة في العشرة: صافاه (7).

منزلة الإخلاص:

الإخلاص هو حقيقة الدين، وهو مضمون دعوة الرسل قال تعالى: (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ).

وقوله: (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ).

قال الفضيل بن عياض في هذه الآية: «أخلصه وأصوبه». قيل: «يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟» قال: أن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم تقبل وإذا صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل، حتى يكون خالصا صوابا: والخالص أن يكون لله، والصواب إن يكون على السنّة». أ.هـ(8).

قال تعالى: (إنما يتقبّل اللهُ من المتقين) يقول شيخ الإسلام: «الناس لهم في هذه الآية ثلاثة أقوال: طرفان ووسط.

فالخوارج والمعتزلة يقولون: لا يتقبل الله إلا من اتقى الكبائر، وعندهم صاحب الكبيرة لا يقبل منه حسنة بحال.

والمرجئة يقولون: من اتقى الشرك.

والسلف والأئمة يقولون: لا يتقبل إلا ممن اتقاه في ذلك العمل، ففعله كما أمر به خالصا لوجه الله تعالى». (9)

الإخلاص سبب لعظم الجزاء مع قلة العمل:

وقد دلّ على ذلك نصوص النبوية ومنها:

1. عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً، كل سجل مثل هذا، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئا؟! أظلمك كتبتي الحافظون؟! فيقول: لا يا رب. فيقول: ألك عذر؟! فيقول: لا يا رب. فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة، وإنه لا ظلم عليك اليوم. فيخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. فيقول: يا رب، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟! فقال: إنك لا تظلم. قال: فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، ولا يثقل مع اسم الله شيء». (10)

2. وحديث المراة التي سقت الكلب، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: « بينما كلب يطيف بركية كاد يقتله العطش إذ رأته بغي من بغايا بني إسرائيل فنزعت موقها فسقته فغفر لها به». (11)

3. وحديث الرجل الذي أماط الأذى عن الطريق، فعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك على الطريق فأخره فشكر الله له فغفر له». (12)

يقول شيخ الإسلام معلقا على حديث البطاقة: «فهذه حال من قالها بإخلاص وصدق كما قالها هذا الشخص، وإلا فأهل الكبائر الذين دخلوا النار كلهم كانوا يقولون لا اله إلا الله، ولم يترجح قولهم على سيئاتهم كما ترجح قول صاحب البطاقة». أ.هـ (13) ويقول أيضا حول حديث المراة التي سقت الكلب والرجل الذي أماط الأذى عن الطريق: «فهذه سقت الكلب بإيمان خالص كان في قلبها فغفر لها، و إلا ليس كل بغي سقت كلبا يُغفر لها، وكذلك هذا الذي نحّى غصن الشوك عن الطريق فعله إذ ذاك بإيمان خالص وإخلاص قائم بقلبه فغفر له بذلك.

فإن الإيمان يتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص». (14).

والإخلاص رتبة الثلاثة الذين خلفوا.

وفي السنن عن عمار عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال: «إن العبد لينصرف من صلاته ولم يكتب له منها إلا نصفها، إلا ثلثها، إلا ربعها، حتى قال: إلا عشرها».

وقال ابن عباس: «ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها».

و في الحديث: «رب صائم حظه من صيامه العطش ورب قائم حظه من قيامه السهر».

وقيل لبعض السلف: «الحاج كثير» فقال: «الداج كثير، والحاج قليل». أ.هـ(15) فالحثّ والتكثير يقع بما يتقبل من الأعمال، وأكثر الناس يقصرون في الحسنات حتى في نفس صلاتهم، فالسعيد منهم من تكتب له نصفها، وهم يفعلون السيئات كثيرا، فلهذا يكفر بما يتقبل من الصلوات الخمس الى شيء، وبما يتقبل من صيام رمضان شيء آخر، وكذلك سائر الأعمال(16).

وحديث أبي هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فاتي به فعرفه نعمته فعرفها، قال: فما عملت فيها؟! قال: قاتلت فيك حتى استشهدت. قال: كذبت؛ ولكنك قاتلت ليُقال: جرئ، فقد قيل. ثم امر به فسُحب على وجهه حتى القي في النار.

ورجل تعلّم العلم وعلمه، وقرا القرآن، فاتي به فعرفه نعمته فعرفها فقال: فما عملت؟! قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرات القرآن. قال: كذبت، ولكن تعلمت ليقال: عالم، وقرات القرآن ليقال قاري، فقد قيل. ثم امر به فسُحب على وجهه حتى القي في النار.

ورجل وسّع الله عليه وأعطاه من صنوف المال، فاتي به فعرفه نعمته فعرفها. قال: فما عملت بها؟! قال: ما تركت من سبيل يحب ان ينفق فيها إلا انفقت فيها لك. قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: جواد، فقد قيل. ثم امر به على وجهه حتى القي في النار». [رواه مسلم].

درجات الإخلاص:

الدرجة الأولى:

إخراج رؤية العمل عن العمل، والخلاص عن طلب العوض عن العمل، والنزول عن الرضى بالعمل.

فالأولى: يشاهد منّة الله تعالى وتوفيقه له على هذا العمل: (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ).

الثانية: ليعلم إنه عبد محض، والعبد لا يستحق على خدمته لسيده عوض.

الثالثة: مطالعته عيوبه وآفاته وتقصيره فيه.

الدرجة الثانية:

الخجل من العمل مع بذل المجهود حيث لا يرى العمل صالحا لله مع بذل المجهود (والذين يُؤْتُون مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ).

فالمؤمن جمع إحسانا في مخافة، وسوء ظن بنفسه.

الدرجة الثالثة:

إخلاص العمل بالخلاص من العمل، إلا بنور العلم، فيحكمه في العمل حتى لا يقع في البدعة. (17)

ثمار الإخلاص:

لا بد من أمرين هامين عظيمين أن تتوفرا في كل عمل وإلا لم يقبل:

-1 أن يكون صاحبه قد قصد به وجه الله تعالى.

-2 أن يكون موافقا لما شرعه الله تعالى في كتابه او بينه رسوله في سنته.

فإذا اختل واحد من هذين الشرطين لم يكن العمل صالحاً ولا مقبولاً، ويدل على هذا قوله تعالى: (فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا).

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره: « وهذان ركنا العمل المتقبل: لا بد أن يكون خالصا لله، صوابا على شريعة رسول الله». أ.هـ

ولهذا من ثمار الإخلاص:

-1 تفريج الكربات (قصة الثلاثة - قصة عكرمة - قصة اصحاب الكهف).

-2 الانتصار: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ × وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ × وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ). (18)

-3 العصمة من الشيطان: (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ). (19) (قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ × إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ). (20)

-4 نيل شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم: عن أبي هريرة رضي الله عنه انه قال: «قلت يا رسول الله: من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟! فقال: لقد ظننت يا أبا هريرة، أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك، لما رأيت من حرصك على الحديث. أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصا من قبل نفسه».

-5 مغفرة الذنوب ونيل الرضوان: كما في حديث البطاقة، والمراة البغي التي سقت الكلب، والرجل الذي أزاح الشجرة من الطريق.

السلف والإخلاص:

قصة يوسف عليه السلام (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ). (21) وقصة موسى عليه السلام: (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا). (22) قال ابو سليمان الداراني: «طوبى لمن صحت له خطوة واحدة، لا يريد بها إلا الله تعالى».

وقال بعض السلف: «من سلم له في عمره لحظة واحدة خالصة لله تعالى نجا».

ولما مات علي بن الحسن وجدوه يعول مائة بيت في المدينة.

وقيل لحمدون بن احمد: «ما بال كلام السلف انفع من كلامنا، قال: لانهم تكلموا لعزّ الإسلام، ونجاة النفوس، ورضا الرحمن، ونحن نتكلم لعز النفوس، وطلب الدنيا، ورضا الخلق».

وقال رجل التميم الداري رضي الله عنه: «ما صلاتك بالليل ؟ فغضب غضبا شديدا ثم قال: والله لركعة أصليها في جوف الليل في سرّ أحب إلى من أن أصلي الليل كله، ثم اقصه على الناس».

وقال أيوب السختياني: «ما صدق عبد قط فاحب الشهرة».

وقال بعض السلف: «إني لأستحب أن يكون لي في كل شيء نية، حتى في أكلي وشربي ونومي ودخولي الخلاء».

وقال الحسن: كان الرجل يكون عنده زوار فيقوم من الليل يصلي ولا يعلم به زواره وكانوا يجتهدون في الدعاء ولا يسمع لهم صوتا.

«وكان الرجل ينام مع امراته على وسادة فيبكي طول ليلته وهي لا تشعر».

قال الفضيل بن عياض: «ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من اجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما».

قال الشافعي رحمه الله: «وددت أن الناس تعلموا هذا العلم يعني كتبه على أن إلا ينسب إلي منه شيء».

عن سفيان قال: «أخبرتني مرية الربيع بن خليم قالت: «كان عمل الربيع كله سراً، إن كان ليجيء الرجل وقد نشر المصحف فيغطيه بثوبه».

وقال جبير بن نفير: «سمعت أبا الدرداء وهو في آخر صلاته وقد فرغ من التشهد يتعوذ بالله من النفاق، فكرر التعوذ منه، فقلت: مالك يا أبا الدرداء أنت والنفاق؟! فقال: دعنا عنك، دعنا عنك، فوالله، أنّ الرجل ليقلب عن دينه في الساعة الواحدة فيخلع منه».

وقال بشر الحافي: «لأن اطلب الدنيا بمزمار أحب إلى من أن اطلبها بالدين».

وعن يحي بن أبي كثير قال: «تعملوا النية، فإنها ابلغ من العمل».

ولهذا فإن إخفاء العبادة وتحقيق الإخلاص يحتاج إلى صبر.

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله أن الصبر على الطاعة ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

-1 صبر قبل الطاعة.

-2 صبر في الطاعة.

-3 صبر بعد الطاعة «المن، العجب، السمعة».

قال ابن عقيل: «كان أبو إسحاق الفيروز بادي لا يخرج شيئاً إلى فقير إلا أحضر النية، ولا يتكلم في مسألة إلا قدم الاستعانة بالله وإخلاص القصد في نصرة الحق دون التزيين والتحسين للخلق. ولا صنف مسألة إلا بعد ان صلى ركعتين فلا حرج أن شاع سمه واشتهرت تصانيفه شرقا وغربا، وهذه بركات الإخلاص». (23) وللعلامة محمد الأمين الشنقيطي قصة تتعلق بصلاح القصد والنيّة، إذ أن له تاليف عديدة، / ومنها منظومة في انساب العرب، وقد ألفها قبل البلوغ بقول في أولها:

في ذكر انساب بني عدنان سميته بخالص الجمان

لكنه – رحمه الله – بعد أن بلغ سن الرشد قام بدفن هذه المنظومة، معللاً انه كان قد نظمها على نية التفوق على الأقران، وقد لامه بعض مشايخه على ذلك، وقالوا له: «كان من الممكن تحويل النية وتحسينها».

وقد نقل عنه العلامة بكر ابو زيد انه قال: «إنما ألفته للتفوق به على الأقران، فدفنته لأن تلك كانت نيتي، ولو استقبلت من أمري ما استدبرت لصححت النية ولم ادفنه». (24) يقول العلامة محمد بن ابراهيم يثني على الشنقيطي: «ملئ علما من راسه حتى أخمص قدميه».

وقال عنه بكر أبو زيد: «لو كان في هذا الزمان أحد يستحق أن يسمى شيخ لكان هو» (25).

ولأن إخلاص النيّات امر عظيم فقد قال ايوب السختياني: «تخليص النيات على العمال أشد عليهم من جميع الأعمال».

ومما اثر عن الفاروق رضي الله عنه انه كتب إلى ابي موسى الأشعري: «من خلصت نيته كفاه الله ما بينه وبين الناس».

شعر:

إذا السر والإعلان في المؤمن استوى فقد عز الدارين واستوجب الثناء

فان خالف الإعلان سرا فما له على سعيد فضل سوى الكد والعنا

يقول الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: «وددت أن الناس تعلموا هذا العلم يعني كتبه على أن إلا ينسب إلي منه شيء».

وقال: «ما ناظرت أحدا قط على الغلبة، وددت إذا ناظرت أحداً أن يظهر الحق على يديه».

وقال: «ما كلمت أحداً إلا وددت أن يسدّد ويعان ويكون عليه رعاية من الله وحفظه».

إنّ هذا الكلمات من هذا الإمام تدل على الإخلاص الذين كان يتحلى به، وتلك علامة من علامات المخلصين: أنهم لا يعملون لأنفسهم، بل مرادهم رضا ربهم، ويودون أن يكفيهم غيبهم تعليم الحق وإظهاره، وعندما ما يحاورون لا يكون غاية همهم أن يغلبوا الخصم، بل مرادهم ظهور الحق، ويتمنوا أن يظهر الله الحق على يد الذي يناظرونه.

والمخلص لا يبالي لو خرج له كل قدر في قلوب الناس من أجل صلاح قلبه مع الله عزّ وجلّ، ولا يحب أن يطلع الناس على مثاقيل الذر من عمله (26)

أمور يجب التنبيه عنها في مسالة الإخلاص:

-1 قصد النعيم الأخروي: بالغ بعض العباد في تجريد القصد إلى الله والتقرب إليه حتى عدوا طلب الثواب الأخروي الذي وعد الله به عباده الصالحين قادحا في الإخلاص، وهم وإن لم يقولوا ببطلان الأعمال التي قصد أصحابها الثواب الأخروي إلا أنهم كرهوا للناس العمل على هذا النحو، ووصفوا العامل رجاء حظ أخروي بالرعونة، وسموه بأجير السوء.

يقول أحد مشاهير الصوفية: «الإخلاص إلا يريد على عمله عوضاً في الدارين ولا حظا من الملكين».

ورابعة العدوية – إن صح عنها – تقول: «ما عبدته خوفاً من ناره ولا حبا في جنته، فأكون كأجير السوء، بل عبدته حبا له وشوقا إليه».

وعدّ الهروي الرجاء أضعف منازل المريدين.

وهذا بعيد عما جاءت به نصوص الكتاب والسنة، فقد وصف الله سادات المؤمنين بأنهم كانوا يعبدون الله خائفين راجين: (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ). وقال تعالى يصف عباد الرحمن: (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا).

وخليل الرحمن إبراهيم يقول في دعائه: (وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ × وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ × وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ × يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿88﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ).

وقد وصف الله نعيم الجنة في سورة المطففين، ثم حث على التنافس والتسابق في طلبه فقال: (وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ).

فكيف يمكن إطلاق هذا القول وقد ثبت أن دين الله تعالى كله دعوة إلى العباد كي يطلبوا الجنة ويهربوا من النار، وأن سادة المؤمنين من الرسل والأنبياء والصديقين والشهداء كلهم يطلبون الجنة ويخافون النار.

أبعد هذا يستقيم قول من زعم أن الذي يعبد الله طلبا للجنة وخوفاً من النار كأجير السوء، أو أن ذلك أضعف مراتب المريدين». (27)

ما يتوهم انه رياء وشرك وليس كذلك:

-1 حمد الناس للرجل على عمل الخير، فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: «قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: «أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه؟! قال: تلك عاجل بشرى المؤمن».

-2 التحدث عن المعاصي لو أن الله يكره ظهور المعاصي ويحب ستره في الحديث: «من ارتكب شيئا من هذا القاذورات فليستتر بستر الله عز وجل».

-3 ترك الطاعات خوفا من الرياء لأن ذلك من مكائد الشيطان قال إبراهيم النخعي: «إذا أتاك الشيطان وأنت في صلاة فقال: إنك مراء، فزدها طولا».

-4 نشاط العبد بالعبادة عند رؤية العابدين: قال المقدسي: «بيت الرجل مع المتهجدين فيصلون اكثر الليل وعادته قيام ساعة فيوافقهم، أو يصومون ولولاهم ما انبعث هذا النشاط، فربما ظن ظان أنّ هذا رياء وليس كذلك على الإطلاق، بل فيه تفضيل، وهو أن كل مؤمن يرغب في عبادة الله تعالى ولكن تعوقه العوائق وتستهويه الغفلة فربما كانت مشاهدة الغير سببا لزوال الغفلة». ثم قال: «ويختبر أمره بان يمثل القوم في مكان لا يراهم ولا يرونه، فان رأى نفسه تسخو بالتعبد فهو لله، وان لم يسخ كان سخاؤها عندهم رياء وقس على هذا» (28) و لا ينبغي أن يؤيس نفسه من الإخلاص بان يقول: إنما يقدر على الإخلاص الأقوياء وأنا من المخلصين، فيترك المجاهدة في تحصيل الإخلاص لأن المخلط إلى ذلك أحوج (29).

-5 عدم التحدث بالذنوب وكتمانها: «كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يصبح وقد ستره الله عليه فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله». [متفق عليه].

-6 اكتساب العبد لشهرة من غير طلبها وترك العمل خوفا أن يكون شركا، قال الفضيل بن عياض: «ترك العمل لأجل الناس رياء والعمل من اجل الناس شرك والإخلاص أن يعافيك الله منه». (30) قال النووي معلقا على كلام الفضيل: «ومعنى كلامه رحمه الله أن من عزم على عبادة وتركها مخافة أن يراه الناس فهو مراء لأنه ترك العمل لأجل الناس إما لو تركها ليصليها في الخلوة فهذا مستحب إلا أن تكون فريضة او زكاة واجبة او يكون عالما يقتدى به فالجهر بالعبادة في ذلك أفضل». (31)

-7 أن يكون قصده إخفاء الطاعة والإخلاص لله ولكن لما اطلع عليه الخلق علم أن الله أظهر الجميل من أحواله فيسر بحسن صنع الله وستره المعصية فيكون فرحه بذلك لا بحمد الناس ومدحهم وتعظيمهم في زاد مسلم عن أبي ذر قال: «قيل يا رسول الله يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه؟! فقال: تلك عاجل بشرى المؤمن». (32) يقول ابن تيمية رحمه الله: «ومن كان له ورد مشروع من صلاة الضحى أو قيام ليل أو غير ذلك فاته يصليه حيث كان ولا ينبغي له أن يدع ورده المشروع لأجل كونه بين الناس إذا علم الله من قلبه انه يفعله سرا لله مع اجتهاده في سلامته من الرياء ومفسدات الإخلاص. إلى أن قال: «ومن نهى عن أمر مشروع بمجرد زعمه إن ذلك رياء فنهيه مردود عليه من وجوه:

-1 إن الأعمال المشروعة لا ينهى عنها خوفا من الرياء بل يؤمر بها وبالإخلاص فيها.

-2 إن الإنكار إنما يقع على ما انكرته الشريعة وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إني لم أومر أن انقب قلوب الناس ولا اشق بطونهم».

-3 إن تسويغ مثل هذا يفضي إلى أن أهل الشرك والفساد ينكرون على أهل الخير والدين إذ رأوا من يظهر أمرا مشروعا قالوا: «هذا مراء». فيترك أهل الصدق إظهار الأمور المشروعة حذرا من زعمهم فيتعطل الخير.

-4 إنّ مثل هذا من شعائر المنافقين وهو الطعن على من يظهر الأعمال المشروعة (الذين يلمزون المطوّعين من المؤمنين في الصدقات)». (33) ذكر الشيخ ابن عثيمين رحمه الله أنّ الرياء ينقسم باعتبار إبطال العبادة إلى قسمين:

الأول: أن يكون في أصل العبادة، فهذا عمله باطل مردود.

الثاني: أن يكون طارئا على العبادة فهذا القسم ينقسم إلى أمرين:

الأول: أن يدافعه فهذا لا يضره.

الثاني: أن يسترسل معه فلا يخلو من حالين:

• الأول: أن يكون آخر العبادة مبنيّا على أوله كالصلاة فالعابدة باطلة.

• الثاني: أن يكون آخر العبادة منفصلا عنها كالصدقة فما كان خالص قبل وما أشرك فيه رد. (34)

أمور خفية:

الرياء جلي وخفي.

فالجلي: هو الذي يبعث على العمل ويحمل عليه.

والخفي: مثل الرياء الذي لا يبعث على العمل لمجرده، لكن يخفف العمل الذي أريد به وجه الله تعالى، كالذي يعتاد التهجد كل ليلة ويثقل عليه، فإذا نزل عنده ضيف نشط له وسهل عليه.

وأخفى من ذلك ما لا يؤثر في العمل ولا في التسهيل، وأجلى علاماته أنه يسر باطلاع الناس على طاعته، فرب عبد مخلص يخلص العمل ولا يقصد الرياء بل يكرهه، لكن إذا اطلع الناس عليه سره ذلك وارتاح له، وروّح ذلك عن قلبه شدة العبادة، فهذا السرور بدل على رياء خفي.

ومتى لم يكن وجود العبادة كعدمه في كل ما يتعلق بالخلق لم يكن خالياً عن شوب خفي من الرياء. (35) الرياء هي الطاعة التي يظهرها الفاعل كي يراها الناس. (36)

من دقائق الرياء وخفاياه:

قد يخسر الإنسان عمله بسبب انعدام الإخلاص، وذلك امّا بالرياء والشهرة والشرف والسمعة والعجب.

الرياء: هو إظهار العبادة لقصد رؤية الناس، فيحمدوا صاحبها، فهو يقصد التعظيم والمدح والرغبة أو الرهبة فيمن يراائيه.

أما السمعة:

فهي العمل لأجل سماع الناس (فالرياء يتعلق بحاسة البصر، والسمعة تتعلق بحاسة السمع).

وأما العجب:

فهو قرين الرياء، وقد فرّق بينهما شيخ الإسلام ابن تيمية فقال: «الرياء من باب الإشراك بالخلق، والعجب من باب الإشراك بالنفس». (37)

هنا ثلاث أمور دقيقة للرياء على النحو التالي:

o أولها: ما ذكره أبو حامد الغزالي في أحيائه حيث قال أثناء ذكره للرياء الخفي: «وأخفى من ذلك أن يختفي (العاقل بالطاعة) بحيث لا يريد الاطلاع ولا يسر بظهور طاعته، ولكنه مع ذلك إذا رأى الناس أحب أن يبدأوه بالسلام وأن يقابلوه بالبشاشة والتوقير، وأن يثنوا عليه، وأن ينشطوا في قضاء حوائجه كأنه يتقاضى الاحترام مع الطاعة التي أخفاها، ولو لم يفعل ذلك ما استبعد تقصير الناس في حقه». (38) o ثانيها: أن يجعل الإخلاص وسيلة لا غاية وقصدا لأحد المطالب الدنيوية «كالحكمة – كالكرامة – كالحوائج الدنيوية».

o ثالثها: ما أشار إليه ابن رجب بقوله: «وها هنا نكته دقيقة وهي أن يذم الإنسان نفسه بين الناس يريد بذلك أن يرى الناس انه يتواضع عن نفسه ويرتفع بذلك عندهم ويمدحونه به، وهذا من دقائق أبواب الرياء وقد نبه السلف الصالح». قال معروف بن عبد الله ابن الشخير: «كفى بالنفس إطراء أن تذمّها على الملأ كأنك تريد بذمها زينتها، وذلك عند الله سفه». [شرح حديث ما ذئبان جائعان]. (39)